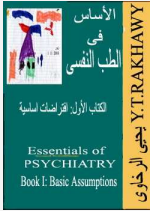


الإربعاء 10-11-2010

1167- الصحة النفسية (5)



الفصل الأول

الصحة النفسية (5)

الجنون في رحاب العقل!

جاء في يومية أمس، النص سابعاً:

يكون الانسان المعاصر صحيحاً نفسياً بقدر ما يصبح الجنون جزءاً من وجوده، وفي نفس الوقت لا ينفصل عن كل الوجود ليقوده إلى التناثر أو التدهور، حين يحدث ذلك نكتمل به - مجنوناً - في نفس اللحظة التي ننتصر فيها عليه، وهكذا فإن الإنسان المعاصر الصحيح إنما يكون صحيحاً ليس بفرط التعقل وإحكام ضبط الداخل، وإنما بحجم التكامل والسماح والتناوب المرن والامتداد المتعدد

ثم أضيف في الهامش :

بدأت هذه الفكرة تلوح لي باكراً بدرجة من الغموض، ثم تبلورت في عمل سابق هو "جدلية الجنون والإبداع"، والذي نشر باكراً في مجلة فصول "المجلد الثالث، العدد الرابع 1986 ثم أعيد نشره وتحديثه في كتاب "حركية الوجود وتجليات الإبداع: المجلس الأعلى للثقافة 2007) - والأرجح أنها ستكون موضوع نشرة الغد، وربما تمتد إلى الأسبوع القادم أو بعده، فقط أنبه الآن إلى أن استعمال لفظ الجنون هنا باعتباره "جزءاً من وجود الإنسان، وفي نفس الوقت لا ينفصل عن كل الوجود" هو مفتاح التعامل مع هذا اللفظ (الجنون) بحضوره الحيوي الحركي، وليس بحضوره المرضي التفسخي أو الشاطح، كذلك سوف نعود غالباً إلى شرح هذه الجملة التي تبدو معقدة، وهي غير ذلك، وهي الجملة التي تقول "ليس بفرط التعقل وإحكام ضبط الداخل، وإنما بحجم التكامل والسماح والتناوب المرن والامتداد المتعدد"، لأن كل لفظ فيها قد يحتاج إلى شرح تفصيلي قد تتاح له الفرصة غداً أو بعد ذلك.

وبعد

دفعني هذا الذي ورد أمس إلى الرجوع إلى هذه الدراسة الباكرة، تمهيدا للنقلة إلى عرض أنواع الحركة والسكون، فيما يتعلق بالصحة النفسية.

تمهيد :

للدخول إلى الإيقاع الحيوى، جوهر النظرية، وجدت أنه من المهم التعرف على ما أسميته حالة الجنون التي افترضت أنها ضمن الدورات الطبيعية لأى فرد، وليست قاصرة على من نسميه المجنون، مع فارق التوقيت والمظاهر والتمادى، وحين رجعت إلى هذه الدراسة الباكرة وجدت تعريفا للجنون يستأهل الأثبات هنا هكذا.

2- تحديد مفاهيم :

.....ما معنى "حالة الجنون" في الحديث عن جدلية الجنون[1]،

لم يستقر الأطباء المختصون أنفسهم على وصف الجنون أو تحديده أو تقسيمه إلى فئات متفق عليها اتفاقا تاما حتى الآن، ناهيك عن عجزهم عن تحديد أسبابه أو أبعاده أو معانيه أو غاياته، فكيف يكون الحال عند الأديب والناقد، فضلا عن المثقف العام، (والشخص العادى) لاسيما أن لفظ "الجنون" يستعمل في هذه المجالات استعمالا متواترا؟ إن المراجع لاستعمال الأطباء المختصين للفظ الجنون، سوف يكتشف أنهم يستعملون - الآن خاصة - ألفاظا بديلة، كما سوف يتبين أنهم لم يتفقوا لا على مضمون اللفظ ولا على مضمون ما اقترحوا من مترادفات للفظ الجنون. في الإنجليزية. مثلا: نجد أن لفظ Madness لم يعد مستعملا في اللغة العلمية الطبية، بعد أن أحلوا محله ألفاظ مثل الذهان Psychosis، والخرف Dementia وما شابه. والترجمة إلى العربية - وهى السائدة بين الأطباء العرب للأسف- تسير على نفس النهج الغامض غير الجامع وغير المانع. على الرغم من كل ذلك فما زال الاستعمال (الطبي) الشائع لفظ الجنون يشمل معانى: الاختلاف الشديد، والغربة الشاذة جدا، والاعتراب المتمادى، والانسحاب الشامل من الواقع، والتفجر الخطر، والتناثر،، والموت النفسى، والنشوز السلوكى الخطر، ولا يمكن لأحد أن يتبين أيا من هذه المعانى هو المراد إلا في سياق متكامل أو بعد تحديد إجرائى معلن.

أما عند العامة فإننا نجد نوعا آخر من الخلط والتداخل في استعمال لفظ الجنون في مختلف المجالات، ففى مجال الأخلاق يستعمل لفظ الجنون ليشمل معانى متعددة، مثل: العدوان الفج، والتبليد، والحمق، والجسارة الجسيمة، والقحة، وغيرها. وفي مجال الأدب لا نجد للفظ نفسه حظا أوفر تحديدا. وقد يصل الاختلاف إلى حد التضاد، فتمّ الجنون/ التجاوز، والجنون/الحلم، والجنون/الوله، والجنون/البله، والجنون/السبق، وخرق العادة، والجنون /الجمال، والجنون/القفرة، والجنون/

التناقض... إلخ. ولا تسعفنا المعاجم بما يفيد إلا تجذيرا وتأريخا لأصل اللفظ وتنوع وروده في التراث أساسا، دون مراجعة مضمونه الحركى الخالى".

انتهى المقتطف الأول:

ثم إنى حاولت أن أحد ما أعنيه شخصا فذكرت أن الجنون قد يعنى معنيين أساسين مختلفين[2] فالجنون قد يعنى:

أولا: العملية التى يتفكك بها الكيان البشرى، تركيبا وسلوكا بلا اتجاه واع بداية - يتفكك إلى وحداته الأولية (وما دونها)، إذ تنشط صراحة - وفى وساد الوعى القائم نفسه - بعض مستويات الوجود الكامنة، ومحتوياتها، تظهر منافسة، ومعارضة، ومباعدة للمستوى الغالب ظاهرا فى السلوك اليومي المعتاد،

وهذه مرحلة الجنون النشط، وهى مكافئة لمرحلة الحلم النشط، وبالتالي فاستعمال اسم الجنون هنا هو إشارة إلى هذه المرحلة، أكثر منها إشارة إلى الاستعمال الآخر للجنون الذى هو:

ثانيا: الناتج الانهزامى المتهم، أو الساكن، أو المنسحب، لهذه العملية بعد إخفاقها، على نحو تترتب عليه حالة من التفسخ المستقر، أو الإعاقة البالغة، أو الانسحاب المنغلق، أو كل ذلك.

حالات الوجود الثلاثة:

حين أشرتُ أمس إلى حالات الوجود الثلاثة تصوّرت استحالة أن أتمكن من تقديم الجنون باعتباره إحدى الحالات السوية بشروط معينة، فعدت مرة أخرى استهدى بمحاولاتى السابقة فوجدت النص التالى :

بإعادة النظر فى موقفنا ما يسمى "الحياة العادية"، يبدو أنه ليس صحيحا أن يكون هذا التعبير: مصطلح "الحياة العادية" (عند العامة والأطباء على السواء) هو المرادف البديهي لما هو "صحة" "نفسية"! ". ذلك لأن مايسمى بالحياة العادية ليس إلا إحدى "صور/حالات" الوجود المتعددة. ومهما كانت هذه "الحالة العادية" وهى الغالبة إحصائيا (حيث يتصف بها معظم الناس) والسائدة زمنيا (لمعظم الوقت)، هى ليست كل الوجود حتى تحتكر ما يطلق عليه الحياة العادية، بمعنى الصحة المرجحة. ذلك لأن مايسمى "الحالة العادية" لو سادت -هكذا- طوال الوقت لأصبحت عاملا معوقا لمسيرة الحياة، فالتطور، حيث أنها عاجزة عن احتواء حركية الظاهرة البشرية فى جدليتها المتصاعدة.

إن التحدى الملقى علينا - والذى نحاول تحمل مسؤوليته فى هذه الدراسة- هو مواجهة هذه الشائعة السكونية (العادية) بفهم أعمق لطبيعة المسيرة البشرية، حتى لا نخدع فنعتقد أن

الصحة النفسية المناسبة ليست إلا المضاعفة المتراكمة لهذه العادة العديدة الكمية السكونية.

معالم مبدئية:

إن ما يطلق عليه تعبير "الحياة العادية" Normal Life، ليس سوى "حالة العادية" State of Normality، على أساس أنها "حالة" من بين حالات أخرى لازمة، بالتبادل والتفاعل، لاستمرارية الحياة البشرية في كفاءتها القصوى ونماذجها المتصل.

فما هي تلك الحالات الأخرى؟

إنها ليست سوى "حالة الإبداع" "وحالة الجنون"، على أساس أنهما تمثلان ألوان النشاط المتبادلة (والمتداخلة والمتفاعلة) مع حالة الوجود العادي الغالبة.

وإذا كنا نقبل أن تتبادل حالة العادية مع حالة الإبداع، بمعناه الأشمل، بما في ذلك إبداع الحلم وإبداع الذات نموءا، فكيف نتصور ضرورة التبادل مع حالة الجنون؟

إن الحالة التي نسميها هنا الجنون والتي نصر على أنها إحدى الحالات اللازمة لكفاءة الوجود البشري، هي مرحلة زمنية (مهما قصر زمنها) قد تتحور أو تنتهي، وقد تسكن وتراجع لتعلن حالة العادية وقد تتمادى للتفسخ، فالنتائج السلبية فقط هو الجنون بمعنى المرض، ولأن نفس العملية قد تتوجه ضامة في إعادة تشكيل إلى حالة فائقة من الجد والتوليف فهو الإبداع.

لقد قصدت أن أستعمل تعبير "كفاءة الوجود البشري" ليحل محل تعبير "الصحة النفسية" حتى يتضح أن المفهوم السكوني الشائع عما هو صحة تحت زعم تقديس "العادية" فحسب، لا يتفق مع ما يعد به الوجود البشري ويستطيعه في حركيته النامية الغائية.

الفرض:

"لا يوجد إنسان هو مبدع بالطبيعة والاستعداد والموهبة، والآخر ليس مبدعا ولا يمكن أن يكون كذلك، الاختلافات واردة، والفرص مختلفة، لكن الطبيعة البشرية بمسيرتها الحيوية تسمح بالتبادل الحتمي لكل فرد دون استثناء بين حالات الوجود التي أشرنا إليها حالا: حالة العادية، وحالة الجنون، وحالة الإبداع. الإشكال إذن في التوقف عن هذا التبادل قهرا أو خوفا أو تشويها، بما يترتب عليه دوام إحدى هذه الحالات على حساب الأخرتين.

فلو غلبت حالة العادية طوال الوقت، لتجمد الوجود، فيما يسمى "فرط العادية" الذي قد يشمل في تضخمه الكمي بعض ما يعرف بـ "اضطرابات الشخصية"

ولو غلبت حالة الجنون طوال الوقت، لتمادى التناثر فتحلل الوجود إلى التدهور المتدامى فالتحلل المتفسخ السلبي (الإزمان والموت النفسي = الجنون الصريح المتدامى).

ولو غلبت حالة الإبداع طوال الوقت، لتقلص الوجود باسما ما احتوى في تشنج ممتد حتى قد ينقلب الإبداع إلى عكسه مفتقرا إلى تجديد مادته الأولية اللازمة المتغيرة لحركية الجدل في نبضة إبداع تال.

تصنيف الأحوال بديلا عن تصنيف البشر:

هذه النقلة من "تصنيف البشر" إلى "تصنيف الأحوال" هي اعتراف ضمني بحتمية التطور عند كل الناس إذ تمثل انطلاقة نحو قبول الطبيعة البشرية بما يسمح للعداى أن يبدع، ويطمئن المبدع حتى لو خاف مخاطرة الجنون (اللاعودة = سكة اللى يروح ما يرجعشى)، كما أنها بمثابة تنبيه إلى ضرورة احترام الذى جُنَّ باعتبار أنه احتمال قائم عند أى واحد منا، وأيضا باعتبار أن ثمة فرصة أمام الذى تورط في هذه الهنة: ليس فقط للعودة إلى العادية والتبادل الصحى، وإنما لاحتمال الإبداع ما دام أنه تحرك بما يشير إلى احتمال أنه أجهزٌ للتفكيك من المتصلب العادى، مع اتخاذ كل الحذر لتعرضه أكثر من غيره للحل السلبى المتمادى.

حالة الجنون ليست هي الجنون، لكنها مشروع جنون كامل:

نوضح هنا- ثانية وكثيرا- أن اعترافنا بـ "حالة الجنون" على أنها مرحلة ضمن حركية النمو، لاينبغى أن يعطيها أية شرعية للمتمادى، حتى تصير إلى ما يسمى "الجنون"، إذن فلا بد من التأكيد على أن حالة الجنون هي غير الجنون وإن كانت هي المؤدية إليه متى طالت، وتمادت، وظهرت كما هي دون تطوير في الوعى العادى، كما أن دفاعنا عن حق التواجد والتبادل والتفاعل لهذه الحالة هو دفاع عن حالة الجنون ضمنا، لكنه ليس دفاعا عن ظاهرة الجنون مرضاً، أى أننا نقبل الجنون- وندافع عنه- بما هو حالة مرحلية نشطة، واحتمالاً واردة، وبالتالي نسمح بحركتها في إطار حركية متكاملة، لكن ليس أبداً بوصفها ظاهرة مستقرة.

إنها دعوة أن نقبل حالة الجنون وليس الجنون، باعتبارها حالة مخترم بدايتها دون مسارها (إلى التدهور والنكوص المستتب). هذا الاضطراب الحذر "الجنون في رحاب العقل" هو المخرج المحتمل لمواجهة غلبة رفضنا للجنون كليا وابتداءً، مما يترتب عليه رفض للحركية ضمنا، ومن ثم تراجع احتمالات الإبداع الذى يتفق معه (مع الجنون) في البدايات.

وبعد

كل هذا هو مجرد مقدمة للتأكيد على الاستعمال الخاص لتعبير حالة الجنون التى هي تنشيط خطر للتركيب البشرى يحمل احتمال التفسخ بقدر ما يمثل أحد أدوار دورات الايقاع الحيوى، كذلك فإن حالة الإبداع لا تشترط إنتاجا إبداعيا بقدر ما تصف عملية إعادة تشكيل تركيب الذات، أو ممارسة فعل الحلم إيجابا مهما قصرت مدته أو تواضعت أشكال ظهوره.

وقفة مؤقتة:

ما جاء في هذه النشرة ليس إلا تمهيدا لتقديم الصحة النفسية، متضمنة حالة أو مرحلة ما اسميناه حالا " **الجنون في رحاب العقل**" كتقدمة ضرورية قبل أن ننتقل الأسبوع القادم إلى الصحة النفسية بين الحركة والسكون.

- [1]- حركية الوجود وتجليات الإبداع، يحيى الرخاوى ،
الجلس الأعلى للثقافة، 2007، ص ، 145
- [2]- حركية الوجود وتجليات الإبداع، يحيى الرخاوى ،
الجلس الأعلى للثقافة، 2007، ص ، 147